عيسى

عليه السلام

جلست السيدة حنة، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن، ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه. وأخذ خيالها يسرح،يسرح عبر هذه السنين التى تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ويملأون البيت حبًّا، وضجيجًا حبيبًا، ومودة وفرحة.

إنها حياة جدباء، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد.

على هذا النسق كان يدور خيالها، وعيناها ممتدتان إلى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة.

استمر خيالها يسير مع هواها، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز، وإذا بها فجأة تسيل دموعها، وتتجه إلى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة، أن يهب لها ولدًا، وقالت:

«اللهم لك على إن رزقتنى ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس».

يقول ابن اسحاق:

«كان السبب فى نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت».

واستجاب الله دعاءها، فلما شعرت بالحمل، اتجهت إلى الله فى شكر وفى عرفان، تؤكد من جديد نذرها، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿إذ قالت امرأة عمران: رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا، فتقبل منى، إنك أنت السميع العليم﴾.

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة؟ ليس بعمران أبى موسى، وبين موسى وعيسى، بون شاسع من الزمن.

أما قولها فى الآية الكريمة ﴿محررًا﴾ فمعناه «معتق» وهى تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبدًا للدنيا ليعبدك وحدك.

يقول الزجاج:

كان على أولادهم فرضًا أن يطيعوهم فى نذرهم، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادمًا فى متعبدهم[1].

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى الجنين فى سعادة، إنها

---

(١) يقول القاضى أبو يعلى، والنذر فى مثل ما نذرت، صحيح فى شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغيرة على عبادة الله وطاعته، وأن يعلمه القرآن، والفقه وعلوم الدين: صح النذر.

تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته، وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته، وفى مداعباته، وما كان خيالها يسرح مطلقًا فى جو هذا الجنين على أنه أنثى، وإنما كان يسرح باستمرار - فى وجوه - على أنه ذكر، هاهو ذا قد أصبح شابًا ذكيًا، فتيًا يأخذ مكانته بين فقهاء المعبد وسدنته، بين المسيرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها، ثم هاهو ذا حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة.. و.. و..

وجاء أوان الوضع، وفوجئت السيدة حنة، مفاجأة لم تكن متوقعة.

لقد كان المولود أنثى.

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن، وفكرت فى نذرها، وفكرت فى المقادير، وفى سرعة اتجهت إلى الله تعالى وكأنها تعتذر أو تستغفر قائلة:

﴿رب إنى وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (آل عمران آية: ٣٦).

أما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى، فإن الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا﴾ (آل عمران آية: ٣٧)

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا، وكان لذلك قصة:

قال السدى:

انطلقت بها أمها فى خرقها، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ:

أنا أحقكم بها، عندى أختها، فأبوا، وخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها، فجرت الأقلام، وثبت قلم زكريا، فكفلها.

قال ابن عباس:

كانوا سبعة وعشرين رجلا، فقالوا: نطرح أقلامنا، فمن صعد قلمه مغليًا للجرية فهو أحق بها، فصعد قلم زكريا، فعلى هذا القلم كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه.

وعلى قول السدى: بوقوفه فى جريان الماء.

وقال مقاتل:

كان يغلق عليها الباب، ومعه المفتاح، لا يأمن عليه أحدًا، وكانت إذا حاضت، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس.

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة.

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا.

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها، وتتعبد فيه، إنها عاملة عابدة.

واتخذت مريم عليها السلام محرابًا، قال الأصمعى: والمحراب هاهنا: الغرفة. والمحراب فى اللغة: الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج.

اتخذت مريم عليها السلام محرابًا تعتكف فيه متعبدة متهجدة.

وكان زكريا عليه السلام، يدخل عليها من آن لآخر محرابها، رعاية لها، وعناية بها وتفقدًا لأحوالها، فكان - على دهشة منه - يجد عندها رزقًا. ويعبر القرآن عن ذلك فيقول:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال: يا مريم: أنى لك هذا؟

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1].

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل: فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى، كما وجد عند خبيب بن عدى الأنصارى رضى الله عنه - استشهد بمكة - قطف عنب - كما فى البخارى، وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانى فى (اليواقيت) عن العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قدس سره أنه قال: إن مريم عليها السلام، كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلًا ليقينها، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا. فلما قوى إيمانها يقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه، فقيل لها: وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيا. اهـ.

أما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الإمام البخارى فى حديث صحيح جليل عن=

=أبي هريرة رضى الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينًا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هزيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم فريقًا من مائتى رجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم أنزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدًا، فقال عاصم ابن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا فى سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصارى وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فاوثقوهم فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم إن فى هؤلاء لأسوة يريد القتل فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم، فأبى فقتلوه.

فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبيد الله بن عياض، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فاعارته. فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى. فقال: تخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده وأنه لموثق فى الحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول أنه لرزق من الله، رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحال، قال لهم خبيب: ذرونى أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتها اللهم أحصهم عددا:

ما أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وأن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو الذى سن الركعتين لكل امرئ مسلم، قتل صبرا، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم=

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة، وصفت نفسها، ورق شعورها، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة.

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم، إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا: تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم﴾ (فصلت آية: ٣٠-٣٢).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى الملائكة، ويتحدث معهم، ولا يراهم من بجواره.

والإمام الغزالى عن تجربة يقول:

«إن السالكين فى ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم، وتتزكى يرون الملائكة».

وتزكت مريم، وبدأت ترى الملائكة، وبدأت الملائكة تتحدث إليها،

=وما أصيبوا وبعث ناس من كبار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على شيئا «فتح البارى بشرح» صحيح الإمام البخارى جـ ٦ ص ١٢٤، ١٢٥».

وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق، وطريق الطاعة يقول سبحانه:

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم: إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران آية: ٤٢).

قال ابن عباس والحسن وابن جريج:

اصطفاها على عالمى زمانها. قال ابن الأنبارى:

وهذا قول الأكثرين:

وبعد أن أثنت عليها الملائكة، هذا الثناء الجميل، قالت:

﴿يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ (آل عمران آية: ٤٣).

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ (آل عمران آية: ٤٤).

وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة، وإنما تزف إليها بشرى مذهلة:

﴿يا مريم، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ (آل عمران آية: ٤٥).

يقول صاحب زاد المسير:

«وفى المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال».

أحدها: إنه قول الله له: «كن» فكان، قاله ابن عباس، وقتادة.

الثانى: أنها بشارة الملائكة بعيسى، حكاه أبوسليمان.

والثالث: أن الكلمة اسم لعيسى، وسمى كلمة، لأنه كان عن الكلمة.

وقال القاضى أبو يعلى:

لأنه يهتدى به، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى.

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه:

﴿وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ (آل عمران آية: ٤٥، ٤٦).

فوجئت مريم بذلك، فقالت فى تعجب واستفهام.

﴿رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾؟

وكانت إجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة، واضحة:

﴿قال: كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾.

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقا لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم﴾ (آل عمران آية: ٤٨-٥١).

وإذا تأملنا قليلًا فى النص الإلهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول:

إنه يفعل ما يفعل بإذن الله، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه القدرة على الخلق، أو الإبراء، وإنما ذلك كله «بإذن الله».

ويقول:

إنه رسول بنى إسرائيل.

وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة.

ويختتم بقوله:

﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

ونعود إلى مريم، عليها السلام من جديد.

لقد كنا مع مريم، وعيسى، عليهما السلام، من خلال سورة آل عمران.

والآن نصاحبها من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى:

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا، فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًّا. قالت: إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًّا، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًّا. قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منَّا وكان أمراً مقضيًّا. فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًّا. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا. فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًّا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا. فكلى واشربى وقرى عينًا فإما ترين من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًّا. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريًّا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًّا. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيًّا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا. وجعلنى مباركًا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا. وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًّا. والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا. ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه

يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (سورة مريم آية: ١٦-٣٦).

أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام، وعيسى عليه السلام؟

إنها فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين.

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة، ويتهمونها بالزنا، إذ بالقرآن، وبالجو الإسلامى كله، قديمه وحديثه، يعتبرها قديسة صديقة.

وبينما ينكر اليهود على عيسى، عليه السلام، نبوته، ويرمونه بالكذب إذ بالإسلام يعترف بنبوته، وبأنه عبد الله ورسوله، وبأنه مبارك، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة.

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده، وعللوا المسيح والمسيحية، بأنها من اختراع القديس بولس، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى خيال القديس بولس، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه، وجوبًا

حتميًّا، الإيمان بعيسى عليه السلام، نبيًّا، ورسولاً، ومباركًا، ووجيهًا فى الدنيا والآخرة.

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين: نبى، معصوم، مبرأ من المعصية، وأمه صديقة، اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين فى زمنها.

ومجمل القول فى أمر السيد المسيح عليه السلام هو مايقوله القرآن الكريم:

﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت.... من مشهد يوم عظيم﴾.

من هذا الأساس ننطلق ونسير فى هذا الكتاب، نسير بحسب واقع بالفعل: أى أننا نصور واقعًا لا نخترعه، ونكتب عن حقائق لم نبتدعها، ونخط صفحات ناشئة عما حدث بالفعل، والله نرجو أن يهدى لها، وأن يهدى بها، وأن يفتح لها قلوبًا، ويرشد بها عقولاً، ويجعلها فى ميزان حسناتنا، إنه سميع قريب مجيب.

النهـــاية

إن الانسان دائمًا مولع بالغيب، ويرجو معرفته.

إنه يسأل عن الماضى البعيد، عن أول الخلق، وعما قبل الخلق، وعن الزمن ومتى بدأ، وعن الكون وكيف تكوّن؟

ويسأل عن المستقبل البعيد، عن المصير والغاية.

إلى أين يسير هذا العالم، وما هى النهاية التى نحن ذاهبون إليها؟

ماذا بعد الموت؟ كيف ينتهى الكون؟

ومن أجل هذا الواقع بالغيب تكونت الفلسفة، ومن أجل ذلك يقال دائمًا إن الفلسفة فى شطرها الأكبر إنما هى محاولة الإجابة على:

من أين؟ وإلى أين؟

أى الإجابة على سؤال عن المبدأ، وسؤال عن المصير.

ولا تزال الفلسفة منذ العهد اليونانى إلى الآن تحاول الإجابة على:

obeikandl.com

من أين؟ وإلى أين؟

ولايزال الناس كذلك يريدون تعمقًا أكثر، واستقصاء أعمق.

ولقد تحدثت الأديان عن المبدأ والمعاد فى إجمال يتناسب مع الفائدة العامة بالنسبة لبنى البشر، وفى عموم تقتضيه الحكمة الإلهية.

لقد تحدثت الأديان عن المبدأ للعلم والمعرفة، وبيان قدرة الله وعظمته، وتحدثت عن المعاد للعلم والمعرفة، وللإنذار والتبشير.

وكما كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن المبدأ، فإنهم كانوا يسألونه عن المعاد أيضًا.

ولقد سبق أن بينا صورة مجملة لرأى الدين فى المبدأ، ونذكر الآن، فى حلقات متتالية صورة مجملة لرأى الدين فى: إلى أين؟

كان الصحابة يسألون عن موعد نهاية العالم، لقد كانوا يريدون تحديدًا محددًا، وتاريخًا يقينيًّا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبهم على ذلك إجابة تتناسب مع مصلحة السائل، ومع المصلحة العامة، وهى مع ذلك لا تجافى الحق، ولا تتنافى مع الصدق.

لقد سأله مرة رجل فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين له أن من الخير أن لا يشغل نفسه بالموعد، وإنما يشغل نفسه بالإعداد للساعة، أى بالعمل

الصالح الذى ينفعه عند قيام الساعة، فقال له: ماذا أعددت لها؟

فقال الرجل: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب.

وفرح الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الكلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحًا كبيرًا، حتى لقد قال أنس رضى الله عنه:

فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

وما من شك فى أن الإنسان إذا أحب فى إخلاص الله ورسوله فإنه يعمل جاهدًا فى مرضاتهما، ومرضاتهما إنما تكون فى اتباع الوحى والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فعل الإنسان ذلك كان مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والروح العامة للدين الإسلامى هى أن علم الساعة إنما هو عند الله تعالى:

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾.

وقد وجه الله سبحانه وتعالى الأذهان إلى الطريق الأمثل، فقال سبحانه:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها، كأنهم يوم يرونها، لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾.

وفيما رواه ابن أبى شيبة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يومًا بارزًا للناس، فأتاه جبريل فقال:

يا رسول الله، متى الساعة؟

فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها.

إن لنهاية العالم - المعبر عنها بالساعة - أشراطًا - أى علامات تنذر بوقوعها، ولا ريب فى أنها - بنص القرآن - تأتى بغتة، يقول تعالى:

﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ (محمد آية: ١٨).

وهذه البغتة إذن ليست مطلقة مادامت هناك أشراط تنذر بوقوع الساعة، ونبدأ فى بيان هذه الأشراط بما رواه البخارى رضى الله عنه قال:

بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى

إذا قضى حديثه، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة.

قال الأعرابى: كيف إضاعتها؟

قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمانة يتضمن معان كثيرة، فوضع الوديعة عند خائن توسيد للأمر إلى غير أهله، والوظيفة يليها من ليس أهلاً لها توسيد للأمر إلى غير أهله، والحكم فى القرية والمدينة يليه من ليس أهلاً له، توسيد للأمر إلى غير أهله، والمرأة تتخلى عن طبيعتها لتلبس طبيعة الرجل أو الرجل يتخلى عن طبيعته يلبس طبيعة المرأة توسيد للأمر إلى غير أهله.

كل هذا مناف للأمانة الفردية والأمانة الاجتماعية، ولقد ربط الإسلام برباط محكم بين الأمانة والإيمان فقال صلى الله عليه وسلم:

«لا إيمان لمن لا أمانة له (رواه أحمد وابن حبان والطبرانى فى الأوسط).

ومعنى ذلك أنه لا إيمان لمن أفشى سر صديقه، ولا إيمان لمن تجسس على الناس يتتبع عوراتهم وزلاتهم، ولا إيمان لمغتاب لأنه لا أمانة له، ولا إيمان لمرتش لأنه لا أمانة له.

وإذا ما حدثت كل هذه الانحرافات وشاعت، كان ذلك من علامات الساعة.

وإذا كانت هذه العلامة، وهى تضييع الأمانة عامة شاملة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فصل الأمر تفصيلاً فى أحاديث عدة، ومن أطولها الحديث الشريف الذى روته كتب الصحاح: عن على رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم:

العلامة الأولى فيه أنه:

«إذا كان المغنم دولاً، أى إذا كان مال الدولة لقوم دون آخرين، يستمتع به أفراد دون أفراد.

والعلامة الثانية: هى أن تكون: «الأمانة مغنمًا» أى إذا عدها الذى وضعت عنده غنيمة يستبيحها ويتصرف فيها ويخونها.

والعلامة الثالثة: أن تكون «الزكاة مغرمًا» أى أن من تجب عليه الزكاة فى ماله لا يعتبر إخراجها فضيلة دينية وخلقية، وإنما يعتبره غرامة فلا يخرجها.

والعلامة الرابعة: «أن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه» أى يطيع زوجته فيما تدبره لأمه من مكر ومن مكائد فيعق أمه التى حملته صابرة على المشقة ووضعته صابرة على المشقة، وأرضعته وربته وحنت عليه وآثرته على نفسها.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الجنة تحت أقدام الامهات». رواه ابن ماجه والنسائى بنحوه.

يقول الله تعالى:

﴿يـأيها النـاس اتقوا ربكم إن زلـزلة السـاعـة شىء عـظيم، يـوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ (الحج آية: ١، ٢).

ولقد ذكر الله سبحانه أحداث القيامة فى كثير من سور القرآن: ففى سورة الرحمن يخبر سبحانه أن السماء ستنشق وتصبح فى لون الورد الأحمر وفى سيولة الزيت.

وفى سورة الانفطار يبين الله سبحانه أن السماء ستنشق، وأن الكواكب ستنتثر متساقطة متهاوية زائلة، وأن البحار ستنفجر، وأن القبور ستبعثر فيخرج ما فيها ومن فيها.

وتتحدث سورة التكوير عن زوال الشمس عن فلكها، وعن الجبال يسيرها الله إلى مصيرها، وعن البحار تسجر، أى تتفجر مشتعلة باللهب متأججة بالنار.

والمعنى العام من ذلك أن هذا النظام الذى قدره الله تقديرًا محكمًا فى عالمنا هذا سيتغير ويتبدل فى صورة رهيبة مذهلة، وينتهى الأمر بأن يقف

الناس فى المحشر من أجل الحساب.

ويتفاوت الناس فى المحشر بحسب أعمالهم كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه:

«يبعث كل عبد على ما مات عليه».

أى أن من ختم الله له بحسن الخاتمة فإنه يبعث على حال حسنة سارة أما من مات على السوء، فإنه يبعث فى حالة سيئة.

عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البزاز - قال:

«يبعث الله يوم القيامة ناسًا فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما بال هؤلاء فى صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكبرون فى الدنيا».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنبار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال (رواه النسائى والترمذى وقال حديث حسن).

ويقول الله سبحانه وتعالى مصورًا حالة طائفة أخرى من أصحاب المعاصى:

﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانًا وأضل سبيلاً﴾ (الفرقان آية: ٣٤).

وإذا كان هذا مصير الجبارين والذين اقترفوا الآثام، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين مصير سبعة أنواع من الناس فى هذا اليوم فيقول - فيما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه:

«سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. رجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب فقال: إنى أخاف الله، ورجلان تحابا إلى الله، ورجل غض عينه عن محارم الله، وعين حرست فى سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» رواه البيهقى فى الأسماء.

وقد يتساءل إنسان عن هذا اليوم: كم ساعة هو؟

وعن ذلك يروى الإمام أحمد عن أبى سعيد رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة».

فقيل: ما أطول هذا اليوم!!

قال النبى صلى الله عليه وسلم:

والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة (رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان فى صحيحه).

❊ ❊ ❊

إننا لم ننته بعد من علامات الساعة وذلك أن العلامة العاشرة هى «لبس الحرير» والمراد بالحرير هنا الحرير الطبيعى الخالص والمراد بلبسه للرجال.

والأديان على وجه العموم لا تحب للرجل أن يسير فى حياته على سنة الترف المترف، وإنما تحب له الرجولة الكاملة التى من خصائصها ألا ينغمس فى أدوات الزينة، وفى المظهر الشكلى.

وما من شك فى أن الله جميل يحب الجمال. وفى أن الكتاب الكريم يقول:

﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف: ٣٢).

يقول: **﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾** الأعراف: ٣١.

ولكن ذلك كله شىء والانغماس فى الترف شىء آخر، ولقد حرم الإسلام لبس الحرير الطبيعى الخالص على الرجال، اللهم إلا لضرورة، ولم يحرمه للنساء.

والعلامة الحادية عشرة هى:«اتخاذ القينات والمعازف» أى إذا انكب الناس على قينات اللهو وآلات الطرب، وهذا الجو المثير للغرائز الصارف عن العمل الجدى، وعن الاتزان الأخلاقى.

والعلامة الثانية عشرة: إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، وأول هذه الأمة هو سلفها الصالح، إنه الجيل الذى حقق المثل العليا فى الأخلاق الفاضلة وفى البطولة الحقة، فإذا سخر به ساخر أو تهكم عليه متهكم، أو لعنه لاعن، فذلك من أشراط الساعة.

وبعد أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العلامات أنذر من تتحقق فيهم قائلاً:

«فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا».

والخسف والمسخ قد يكون جزئيًا فيكون تدمير مدينة أو تدمير شخص.

وقد يتسع نطاقه فيكون تدمير عدة مدن، وقد يكون ذلك بفعل صواعق، وقد يكون بفعل الزلازل.

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف».

فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟

قال: إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور.

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة الخسف والمسخ فسألته السيدة عائشة رضوان الله عليها قائلة:

يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون.

قال: نعم، إذا ظهر الخبث.

ومن العلامات التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر: أن يرفع العلم ويظهر الجهل.

والعلم المقصود هنا هو العلم بالله، أى العلم بالأساس الأول للعقيدة والأخلاق والخير والحق.

وإذا طغت الماديات على الاتجاه الروحى فأصبح صوت الدين خافتا وضعف الشعور الدينى شيئا فشيئا حتى انتهى الأمر بالدين إلى أن أصبح غريبا، وانتهى الأمر بالمجتمعات إلى أن أصبحت مادية، فإن ذلك من أشراط الساعة ومعنى كل ذلك: أن السمة العامة فى أشراط الساعة إنما هى انتشار الفساد والبعد عن الله وعن الحق والخير والفضيلة، ومن هنا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

ان مما روته كتب الصحاح أنه: لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القاتل.

والجو العام فى الأحاديث التى تعبر عن أشراط الساعة هو أن المجتمعات الإنسانية سائرة على وجه العموم فى طريق التخلى عن الدين، وإذا تخلى الإنسان عن الدين اتبع هواه، وانقاد لغرائزه فساد الشر وكثر

شقاء الإنسانية وعن ذلك يعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

«لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله. الله».

وهذه الحالة تأتى تدريجا وذلك أن الصالحين يذهبون الأول، فالأول، وتبقى حثالة الشعير، أوالتمر ولايباليهم الله بشىء، على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم..

بل إن الله سبحانه وتعالى – على ما رواه الإمام مسلم – يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحدًا فى قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته.

فإذا ما ارتفع الإيمان كانت الخاتمة المحتومة بالنسبة للكون وهى التدمير المطلق أو بتعبير آخر: كان المصير هو يوم القيامة.

وإنه لمن المعلوم من الجو الإسلامى أن الله سبحانه وتعالى يشقى الأفراد ويسعدها بنسبة إيمانها نقصًا وزيادة. هذه سنته سبحانه وتعالى فيمن سلف ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذه الأخبار سمعتها السيدة عائشة رضوان الله عليها، فأثارت فى نفسها سؤالاً وجهته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

«لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى».

فقالت عائشة: يا رسول الله، كنت أظن حين أنزل الله:

﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أن ذلك تام - أى سيستمر زمانًا ومكانًا إلى نهاية العالم.

فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم.

ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم شقاء الإنسانية فى آخر الزمان بسبب ضعف الإيمان شيئاً فشيئاً فيقول فيما رواه الشيخان :

«والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه فيقول:

يا ليتنى مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين، ما به إلا البلاء».

فانه لا يتأتى - ونحن بصدد الحديث عن أشراط الساعة - أن نغفل الحديث الذى فيه بشرى للمسلمين.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه - فيما رواه الإمام مسلم - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى

يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يامسلم، يا عبدالله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله».

وهذا الحديث حديث صحيح وبشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاشك فيها، وستنتصر إن شاء الله الأمة الإسلامية بإيمانها وجهادها وثقتها فى الله وإعزازها لدينه وتتحقق بذلك بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان من المفروض أن نكتب عن رسول الله صلى الله عليه بعد أن كتبنا عن سيدنا عيسى، ولكننا كتبنا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كتابًا بعنوان «الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته وأضواء من هديه» وترجمنا كتابًا بعنوان: «محمد رسول الله».

وطبع كلاهما عدة مرات.

ومن أجل ذلك نتخطى الزمن فنصل إلى النهاية، ثم إلى خاتمة الكتاب.

obeikandl.com

خـــاتمـة

المعرفة نوعان:

معرفة مادية مثل قوانين الطبيعة والكيمياء والفلك.

وهذا النوع من المعرفة من كسب الإنسان عن طريق العقل، وهو النوع الذى يعبر عن الحضارة فى شطرها المادى، ومعرفته تتأتى عن استنتاج العقل من نتائج وسائل المعرفة وهى: الملاحظة والتجربة والاستقراء.

وهذا النوع هو مظهر الحضارة الحالية الغالب.

أما النوع الثانى من المعرفة فإنه الخاص بالعقيدة، والأخلاق، والتشريع ونظام المجتمع.

وهذا النوع هو من صنع الله سبحانه وتعالى يوحى به ويبينه على ألسنة رسله.

ورسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام هى أن يبينوا عن الله المبادئ

obeikandl.com

الخاصة بالعقيدة والقوانين التى بها ينتظم المجتمع: أفرادًا وجماعات.

وجاء هذا البيان منذ آدم عليه السلام.

وكانت دعوة آدم تتجه على الخصوص إلى أساسين من أسس المجتمع الصالح:

١ - أما أولهما فهو عقيدة التوحيد، والحق أن هذه العقيدة هى عقيدة أرسل بها كل الرسل.

لقد تحدثوا جميعًا عن التوحيد: توحيد الألوهية فى الذات وتوحيدها فى الفعل:

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾.

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شىء قدير﴾ (آل عمران: ٢٦).

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ (هود: ١٢٣).

﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (غافر: ٢).

﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ماتحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطامًا فظلتم تفكهون، إنا لمغرمون، بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم﴾ (الواقعة: ٥٨-٧٤).

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبًّا، ثم شققنا الأرض شقًّا، فأنبتنا فيها حبًّا، وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلًا، وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًّا متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢).

التوحيد:

إنه دين الأنبياء جميعًا.

وآدم باعتباره الأب للبشرية جميعًا، كان يبشر بالتوحيد، ويبشر بأمر آخر يستلزمه التوحيد هو أساس ثان من أسس المجتمع الصالح: ذلك هو

التوبة الصادقة، إنه الرجوع الفورى إلى الله فى صدق حينما يحس الإنسان أنه انحرف عن الصراط المستقيم، إنه الإنابة إلى الله عند الهفوة.

والمثل الكريم فى ذلك هو آدم نفسه الذى نادى فى صدق:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣).

ويمضى الزمن بالإنسانية فتغفل نوعًا ما عن الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله عند الهفوة، فيرسل الله نوحًا عليه السلام ليصحح فى المجتمع عقيدة التوحيد، ويحيى فى المجتمع الشعور بالاستغفار، يقول سبحانه:

﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ (هود: ٢٦ - ٢٧).

ويقول سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

وأخذ نوح يدعو ليلًا ونهارًا، سرًّا واعلانًا.. ثم..

﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن

فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (هود: ٣٦ - ٣٧).

ولقد أرسل الله رسلًا يعالجون أمراضًا معينة فى المجتمع، ومع معالجتهم لهذه الأمراض كانوا يصححون التوحيد، أو قل انهم يحاولون معالجتهم للمجتمع على أساس من تصحيح التوحيد: فلوط عليه السلام كان يعالج فى مجتمعه الشذوذ الجنسى، يقول تعالى:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (الأعراف آية: ٨١ - ٨٤).

﴿ولما جاءت رسلنا لوطًا سىء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى، أليس منكم رجل رشيد؟. قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن

موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هى من الظالمين ببعيد﴾ (هود: ٧٧ - ٨٣).

وقال تعالى:

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون، قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون، فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون، وقضينا إليك ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، وجاء أهل المدينة يستبشرون، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون،واتقوا الله ولا تخزون، قالوا أو لم ننهك عن العالمين، قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين، وإنها لبسبيل مقيم، إن فى ذلك لآية للمؤمنين﴾ (الحجر: ٦١ - ٧٧).

وقال تعالى:

﴿كذبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين، أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون

ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين، قال إنى لعملكم من القالين، رب نجنى وأهلى مما يعملون، فنجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزا فى الغابرين، ثم دمرنا الآخرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ (الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥).

ويقول سبحانه:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين﴾ (النمل: ٥٤-٥٨).

وقال تعالى:

﴿ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، قال ربى انصرنى على القوم المفسدين، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين، قال إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله

إلا امرأته كانت من الغابرين، ولما أن جاءت رسلنا لوطًا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين،إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ (العنكبوت: ٢٨-٣٥).

ويونس عليه السلام كان يجدد بعمله وقوله التسبيح.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين،للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٤).

وشعيب عليه السلام، كان يعالج تطفيف الكيل والميزان.

يقول الله تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (الأعراف: ٨٥).

ويقول تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا

الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ﴾ (هود: ٨٤-٨٦).

ويقول سبحانه:

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٨٤).

وموسى عليه السلام كان يعالج قلوب بنى إسرائيل المتحجرة وإيمانهم الهش الذى استعصى عليه، وهم الذين وصل بهم الأمر أن قالوا:

﴿يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

وعيسى عليه السلام حاول أن يبعث فى قلوب اليهود الرحمة.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان يعالج المجتمع ككل.

يعالج فيه العقيدة.

ويعالج فيه الأخلاق.

ويعالج فيه التشريع.
ويعالج نظام المجتمع.
ويدفعه إلى العلم.
ومن أهداف رسالته أنه:

يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (الجمعة آية: ٢)

ويمتن الله على أن بعث فى العرب رسولاً منهم:

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ويقول سبحانه:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يعالج المجتمع ككل، ويسوقه إلى حضارة يتكامل فيها:

العلم والإيمان.

حضارة علمية مؤسسة فى أسسها، وفى سيرها، وفى أهدافها على الإيمان.

ومن هنا كانت رسالته الخالدة، وكان خاتم الرسل.

ولقد حفظ الله كتابه:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر آية: ٩).

وحفظ هذا الذكر دون تغيير أو تبديل، وضمان الله، أن لا يصيبه تغيير أو تبديل: معناه أن محمدًا رسول خالد، لأن الرسول: رسالة، وما دامت الرسالة قائمة كاملة، فإنها رسول قائم.

وانتفت الحاجة إذن إلى رسول جديد، وكما يقال من: قاديانية، ومن بهائية، ومن زيف كثير بدأ بمسيلمة ومدعى النبوة من العرب المزيفين كل هذا هراء لا قيمة له، وقد أثبت الزمن، وما زال يثبت أن النبوة ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وأخرج محمد صلى الله عليه وسلم المجتمع القرآنى إلى واقع، إنه واقع استمر، وطبق محمد صلى الله عليه وسلم المبادئ الإلهية القرآنية فى مجتمع فسدت فيه الفضيلة والقيم المثالية.

وليس هناك من عقبة حقيقية فى سبيل إخراج هذا المجتمع من جديد: اللهم إلا النفوس والشهوات.

ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى السعادة والنصر والفوز للمجتمع القرآنى: المؤسس على الإيمان والعمل الصالح.

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج: ٤٠، ٤١).

* * *

لقد سافرنا فى رحاب الكون الروحية مدة طويلة، سافرنا فيها زمانًا مبتدئين من يوم «كان الله ولا شىء معه» وسافرنا فى هذه الرحاب مكانًا متنقلين مع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من إقليم إلى إقليم.

وكما أن أرجاء الكون تمتلئ بالظواهر المادية، فإنها أيضًا مليئة بالظواهر الروحية، وكما أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ماديًّا فأبدع خلقه وتكوينه ورسم قوانينه ومظاهره فى احكام واتقان، فإنه سبحانه عنى بالكون روحيًّا ورعاه فى زواياه الأخلاقية والعقيدية، فأرسل إليه الرسل والأنبياء منذرين ومبشرين وقد آن لهذه الرحلة أن تنتهى، وأن نتحدث عن المعجزة الكبرى وهى القرآن الكريم لنجعلها بتوفيق الله مسك الختام.

يروى قتادة رضى الله عنه، وهو من خيار التابعين، أن موسى عليه السلام قال:

يارب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتبهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه، وأن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدًا من الأمم، قال موسى عليه السلام: رب اجعلهم أمتى قال الله تعالى: تلك أمة أحمد.

ومما تعنيه كلمة سيدنا موسى عليه السلام أن ما يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من أهل الديانات الأخرى أنها تحفظ كتابها، وهو القرآن الكريم عن ظهر قلب، وهذه الميزة حقيقة واقعة، وذلك أن حفظ القرآن شائع فى مختلف الأقطار والجاليات الإسلامية.

وقد بدأ الصحابة رضوان الله عليهم بحفظ القرآن مع العمل به، لقد كانوا يحفظونه ويطبقونه فى الأخلاق، وفى التشريع، وفى العقيدة، لقد حكم حياتهم فيها، فاستناروا فى طريقهم به، واهتدوا فى حياتهم بهديه.

أما السبب فى اهتمامهم به على هذه الصورة فلأنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلًا:

عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو

الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن رسم لهم فى القرآن طريق السعادة فى دنياهم وفى أخراهم، وهو طريق لا استحالة فيه ولامشقة، وقد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين.

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا: لقد غمرهم الرضى، وأحاط بهم الاطمئنان ولفتهم أردية السعادة.

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة، يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيرًا من الخلائق، ويدخلهم الجنة برحمته، ويريهم وجهه الكريم تفضلًا منه سبحانه، هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توافر فيه شرطان:

الأول: الإيمان.

الثانى: العمل الصالح.

﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

ونسأل الله سبحانه التوفيق والهداية، ونرجوه السعادة والرشاد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.